

عبادة الله والنعمة

رفقا الأمّ المثاليّة تحملُ آلامًا خلاصيّةً وتشهدُ أنّ الشراكة في آلام المسيح هي طريق المحبّة.

أحبّائي، ولدتِ القديسةُ رفاقا يوم عيد الرسولين بطرس وبولس في 29 حزيران سنة 1832 في حماليا ودُعيت بطرسيّة. كان والداها يُعلّمانها الصلاة ومحبّة الله والكنسية منذ البداية، فانسَمّت طفولتها بالبساطة الروحيّة ومخافة الله والهناء والهدوء في كنف عائلةٍ مارونيّةٍ متواضعة. لكنّ الموت أفقدها حنان الأمومة وهي في السابعة من عمرها، فاختبرتْ بألمٍ ممزوجٍ بمحبّة المسيح معنى اليُتم والحرمان من عطف الأمّ وحمائيتها، إلى أن أرسلها والدها لتخدُم عائلة مارونيّة ميسورة في دمشق، ما بين العاشرة والرابعة عشرة من عمرها. ولبرارتها ونقاوة قلبها، أوجدها الله مع امرأةٍ عاملتها بلطفٍ كأنّها إحدى بناتها. بعد عودتها إلى البيت الأبوي، تعرّفت بطرسيّة - رفاقا على الخوري يوسف الجميل، فوجدتْ فيه حنان الأمّ الذي فقدته وعطف الأب ورعايته، فأخذته مرشدًا روحيًا لها لما يتمنّع به من تقوى وفضائل إنسانيّة وروحيّة. كذلك، اكتشفَ هذا الكاهن الجليل مواهب هذه الطفلة الصبيّة وما تتمنّع به من طهارة روحيّة تؤهّلها، إلى جانب عشقها للصلاة والخلوة الروحيّة، لتكون من المكرّسات اللواتي يخدمنّ المسيح عريسهنّ، فلُقّبها ب"زنبقة حماليا".

أحبّائي، بعد نزاعٍ مع والدها وزوجة والدها، ولما نضجتْ دعوتها الرهبانيّة، قرّرت بطرسيّة - رفاقا أن تكون أمًا روحيّة بدل أن تكون أمًا زمنيّة، فترهّبت سنة 1859 في جمعيّة المريمات مع الخوري يوسف الجميل مؤسسها، واتّخذت اسم "رفقا". بعد ثلاث سنواتٍ من انضوائها لجمعيّة المريمات، أي إثر إبرازها نورها المؤقتة في 19 آذار 1862 في عيد مار يوسف البتول، أرسلت لتكون أمًا للطلّاب الإكليريكيين في غزير، حيث كانت تهتمُّ بشؤون المطبخ وتُعدُّ لهم الطعام، لعدّة سنوات. وهكذا، استحققت في خدمتها المتفانية هذه أن تُلقب "أمّ خدّمة المحبّة" للنّعب الذي قدّمته في هذه الخدمة. ومن ضمن رسالتها هذه، خدمت في رسالةٍ تعليميّةٍ لفترةٍ وجيزة، سنة 1960 في دير القمر. وكانت تلك المنطقة قد شهدت مذبحهً داميّةً، فتحوّلت الراهبة رفاقا إلى "الأمّ الحامية والمُحامية" للأهالي من الذبح، وبالأخصّ الأطفال. وتذكرُ القديسة رفاقا في حديثها أنّها خبّأت ولدًا داخل ثوبها الرهبانيّ وأنقذته من الذبح والموت المُحمّم.

سنة 1863، نُقلت رفاقا من غزير إلى مدرسة الجمعيّة في مدينة جبيل. خدمت رفاقا في تعليم الفتيات خلال هذه السنة الدراسيّة، وأظهرت رفاقا أنّها مثال الأمّ التي تعني بصغارها. خلال هذه الفترة، كانت تخدم أيضًا في كنيسة مار يوحنا مرقس خلال الذبيحة الإلهيّة وسائر الصلوات البيعيّة، فوجد فيها أبناء المنطقة خير شاهدةٍ للمسيح ولأمّه مريم، إذ إلى جانب صلوات الوردية المقدّسة أطلقت ساعات السجود للقربان المقدّس. وهكذا، ثمّن المؤمنون أمومتها كمربيّة ومُعَلِّمة، شاكرين لها غيرتها وعذوبة صوتها ورقّة أخلاقها ووداعتها وفضائلها...

اشتهرت رفقا بأومتها للكبار والصغار، فطُلبت أوائل أيلول سنة 1863 إلى قرية معاد لتعليم البنات وتربيتهن، وبدأت خدمتها الجديدة هناك. فاهتمت بتعلمهن التعليم المسيحي الصحيح ودعوتهن للحشمة الدائمة والاعتراف بالخطايا وتحضيرهن لخدمة الرتب والزياحات والصلوات البيعية، إلى جانب الحساب والقراءة والكتابة. وهنا استحققت أن تُلقب بـ "الأم المعلمة والقديسة" لأنها تفانت في التقوى والمحبة والغيرة الرسولية والتواضع والوداعة والحشمة والهدوء والصمت واللطف والوقار.

بعد سبع سنين من الخدمة الأمومية في معاد، صعبت الأحوال في الوطن، وتأثرت جمعية المريمات بالوضع العام. فقرّر مسؤولي الجمعية المريمية وجمعية القلب الأقدس من الرهبان اليسوعيين ضمّ الجمعيتين إلى جمعية واحدة تُعرف الآن بـ "جمعية القلبين الأقدسين". صلّت رفقا في كنيسة مار جرجس معاد مع بكاءٍ شديد، وأخذت الجواب من الله الذي دعاها لتترهب في الرهبانية البلديّة المارونيّة في دير مار سمعان أيطو. دخلت هذا الدير في 06 تمّوز سنة 1871، وأبرزت نذورها الاحتفالية: الطاعة والعفة والفقر والتواضع" في 25 آب سنة 1872. فبعد أن كانت أمّا حركمة تخدم بالتعليم والتربية والعيش والتبشير، أضحت في أيطو أمّا متوارية عن الأنظار، تعمل بصمتٍ وتُصلي باستمرارٍ وتتأمل بكلام الله وتخلو في حبه الإلهي وتتأمل مع آلامه الخلاصية.

أظهرت رفقا خلال إقامتها في أيطو (1871-1897) عن محبة كبرى للراهبات وتفانٍ في الخدمة الديرية وأمومة غير مسبوقه في التضحية والعطاء. بين ثماني وخمسين راهبة، عُرفت رفقا بتفوقها في عيش الفضائل، فقلن فيها: "تقدّست بسلامة نيّتها". فانطلقت خدمة رفقا في أيطو، خدمة "الأم الحنون والمضحية"، لأنها كانت كلّما خطت إحدى أخواتها الراهبات تتقدّم من الرئيسة وتأخذ عنها تنفيذ القصاص. وما برحت تقوم بهذه التضحية التي تمنّ عن حبّ كبيرٍ لحبيبها يسوع المسيح ولأخواتها الراهبات، وعن عطفٍ وحنانٍ للواتي لا زلن يجهلن معنى مشاركة يسوع في سرّ فدائه العظيم للبشريّة عبر الألم والتضحية. وهكذا، ظهرت رفقا "الأم المريمية الفادية" التي عاشت كلمة الإنجيل كما طلبها منّا يسوع المسيح حين قال: "وصية جديدة أعطيتكم،... أن تحبوا بعضكم بعضًا كما أنا أحببتكم" (يو: 13: 34). "ليس لأحدٍ حبّ أعظم من هذا، وهو أن يبذل الإنسان نفسه في سبيل أحبائه. أنتم أحبائي إن تعملوا بما أوصيتكم به" (يو: 15: 13-14)، وليس برغباتكم الخاصّة. وهذا هو الذي طبّقته رفقا عندما أحبّت أخواتها الراهبات كما أحبنا المسيح، فراحت تخدمهن وتكفّر عن خطاياهن لتعلمهن طريق الملكوت الذي يبدأ بالصليب وينتهي بالانتصار والقيامة. وهكذا، كانت رفقا تبدل ذاتها عن أخواتها عاملةً بوصية المسيح، فأضحت حبيبة وعروسه وطفلة لمجد الملكوت السماويّ.

أحبائي، لم تكتف رفقا بكلّ هذا، بل طلبت من عريستها، الربّ يسوع المسيح، أن يشاركها بآلامه الخلاصية، وذلك، يوم أحد الوردية الكبير سنة 1885. وهكذا، افتقدتها المسيح بمرضٍ رحمةٍ منه، خلاص نفسها وخلاص نفوس أخواتها وكلّ النفوس التي يختارها هو. انتقلت مع خمسٍ من أخواتها إلى دير مار يسوف جريتا في 3 تشرين الثاني سنة 1897، وهناك حملت رفقا آلامًا خلاصيةً مُبرحةً في

جسدها وفي نفسها، فأصبحت "الأم المتألّمة الفادية". جسدها لم يبقَ منه إلاّ الجلد والعظم، ونفسها المجروحة بحُبِّ المسيح ارتقت إلى أعلى دركات التوجُّع الخلاصيّ المُطهِّر. اقتلعت عنها اليمنى والثانية غاب عنها البصر، فأضحت عمياء لا ترى إلاّ وجه المسيح وأمها مريم البتول في بصيرتها. تفكّكت عظامها وخرجت عن مكانها وانغرزت في اللحم وظهرت إلى الخارج، فأضحت رفقا مُخلّعة ومُعظم عظامها أصبحت مثل منخورة الإسفنجة. وقد حملت آلامًا بليغةً في كتفيها اللذين تفكّكا، فعظم الكتف الأيمن ثقبَ الجلد ولامس عُنقها، لذا كانت تُردّدُ دائمًا: "مع جرح كتفك يا يسوع". أما نفسها التي ارتقت إلى الاتحاد بالحُبِّ الإلهيِّ، فكانت تترقى لكثرة الأصوام والإماتات والتّقشُّف والصلوات الفائقة الوصف، إذ بلغت رفقا سلّم الكمال الروحيّ لصدق محبّتها لأخواتها ولاحترق قلبها بالحُبِّ الإلهيِّ. لقد شعرت رفقا بآلام إكليل الشوك، فكانت تتوجّع في الجبين أوجاعًا لا تُوصَف، وتنزف دمًا من أنفها أربع مرّاتٍ في الأسبوع بقدرٍ ليدرّ واحدٍ على الأقلّ. وكانت قبل حصول النزف تشعرُ بألمٍ ينخرُ في رأسها وينغرز في عينيها كالمسّلة. وعند حصول النزف هذا كانت تقول: "إجا ابن عمّي يزورني". وكان نزف الدم ينحدر من داخل رأسها مُتوجّهًا إلى جبهتها وعينيها يحرقها كحشيشٍ مُجمّرٍ بالنار، ثمّ يسيل من أنفها. ولمّا كانت تسألها الرئيسة من أين لك هذا الدم، كانت تُجيب: "براسي في خرّان دم، وهون كلّ وجعي". أليس هذا من ألم إكليل الشوك الذي سبّب لیسوع آلامًا لا وصف لها؟! لقد استطعت رفقا بآلام الجرح السابع، أي بآلام إكليل الشوك، فتذوّقت طعم الحُبِّ الإلهيِّ الأعظم بفرح عظيم.

عشقت القربان المقدّس فتعبّدت له منذ بداية حياتها الرهبانيّة، واستمرّت في عبادته حتّى وفاتها. وزحفت وهي مُخلّعة إلى الكنيسة يوم عيد القربان المقدّس. واستمرّت تمضغُ جسدَ الرّبِّ يسوع في فمها لربع ساعة سهوًا. ونحن نعلّم أنّ الرّبَّ يسوع عندما يظهر في سرِّ القربان في فم المؤمن، يظهر بقلبه الأقدس. وهكذا، أخذت رفقا تتعدّى من قلب يسوع الأقدس ودمه الغفور طيلة يومٍ كاملٍ، وكان طعمه كقطع شهد العسل الشهيّ. لذلك، أعلنتها البابا القديس يوحنا بولس الثاني "قدوةً ومثالاً في عبادة القربان المقدّس لليوبيل القربانيّ لعام 2000"، وذلك في 2 حزيران سنة 1999. صلّت رفقا صلاة الوردية المقدّسة بتأمّلٍ وخشوع، وكانت مريم البتول، كشريكةٍ في سرِّ الفداء، أمها ورفيقتها ومُعينتها في كلّ شيء. فصارت رفقا أمام أخواتها "أمًا للسجود والتأمّل والصلاة".

هذه هي الأمُّ رفقا، قديسة لبنان والعالم، تدعو اليوم من سماء السموات كلّ الأمّهات إلى عيش أمومتهم عيشًا حقيقيًا. وذلك، بعبادة القربان المقدّس وصلاة الوردية وتربية أولادهم على الحياة المسيحيّة الصالحة، وبتعليمهم الصوم والإماتات والصلوات، وبخدمة المحبّة والصلاة من أجلهم والدفاع عن الإيمان الكاثوليكيّ الصحيح أمامهم لتحميهم من شرِّ الضلال والفساد، وبالتضحية الدائمة وتقبُّل الآلام شراكةً مع آلام المسيح من أجل خلاصهم. وهكذا، نسالُ الله بشفاعتها وشفاعة أمنا مريم العذراء، الأمُّ الحقيقيّة لنا ولخلاصنا، أن يرفقَ بكلِّ أمّهاتنا ويسكبَ عليهم بلسم حُبِّه الإلهيِّ، فنرفع معها ومعهم المجد للثالوث الأقدس إلى الأبد. آمين.